مهرجان القراءة للجميع



مكتبة الأسرة

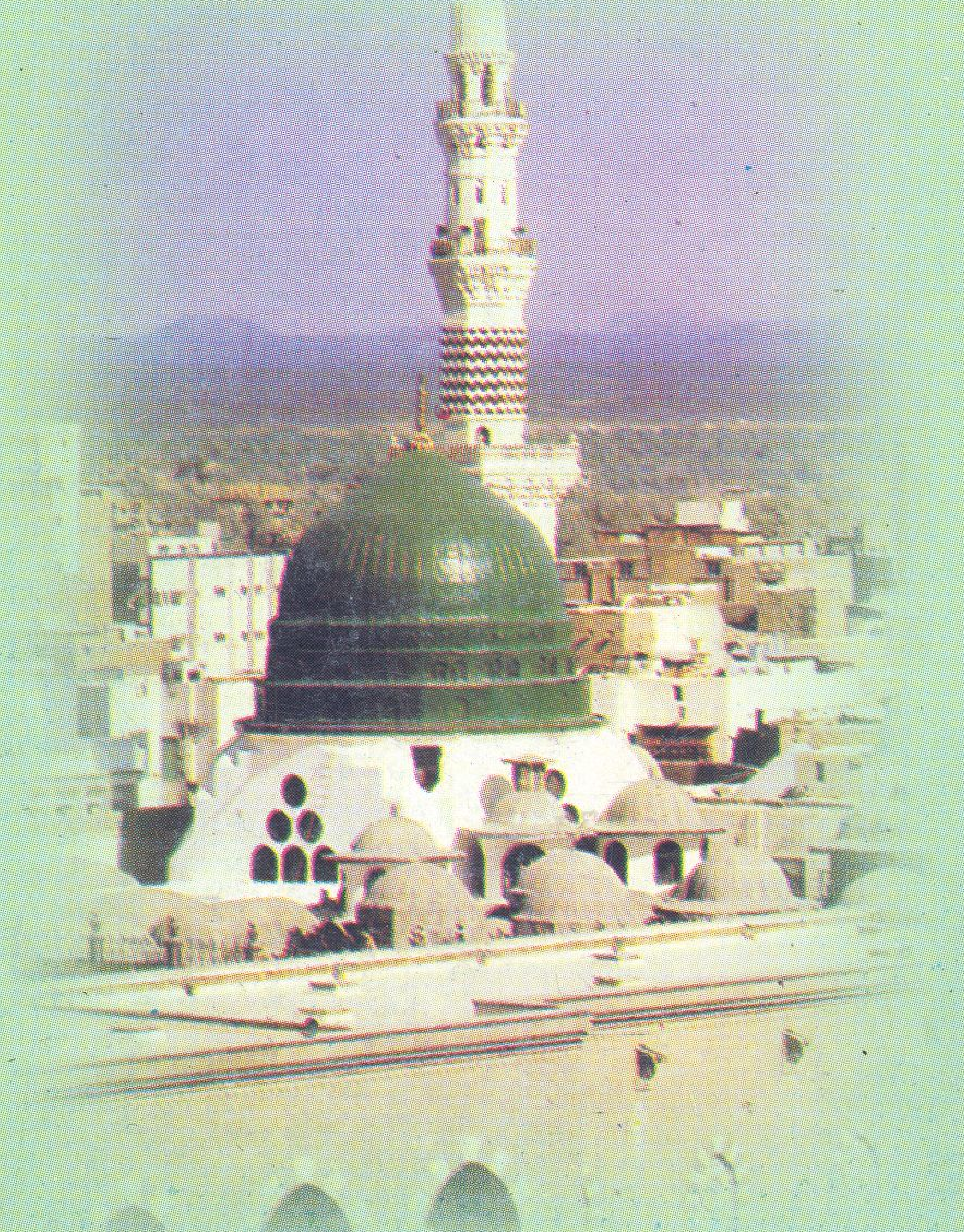
د. أحمد شلبى

من السيرة النبوية العطرة

الجزء الأول

مُحمد قبل البعثة

الأعمال الدينية





الهيئة المصرية العامة للكتاب

محمد قبل البعثة

من السيرة النبوية العطرة

(١)

محمد قبل البعثة

د. أحمـــد شـــلبى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١
مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الدينية)
من السيرة النبوية العطرة (١)

محمد قبل البعثة
د. أحمد شلبى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
صبرى عبد الواحد

المشرف العام :
د. سمير سرحــان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزار ة الشــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً ويسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

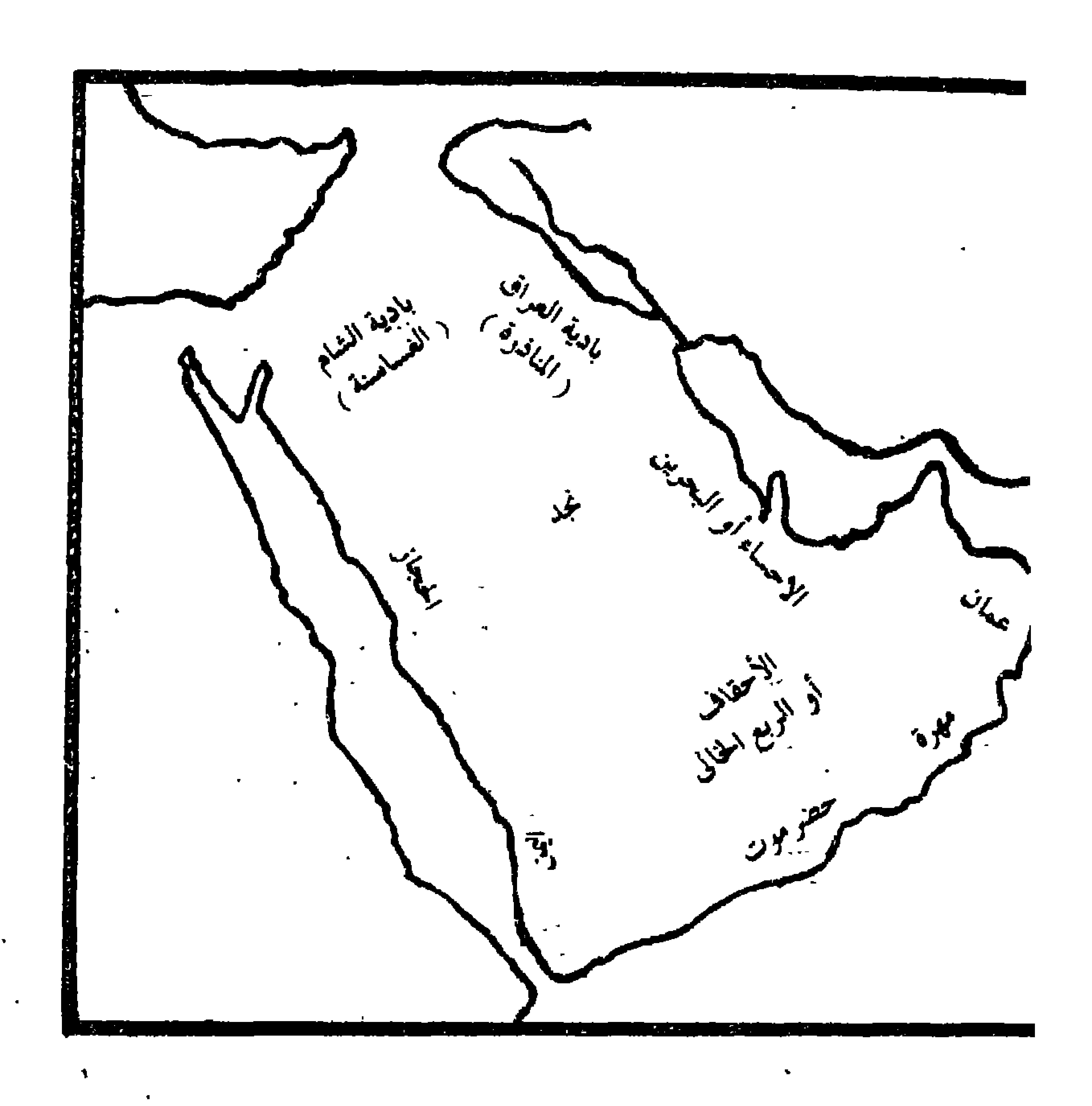
د. سمير سرحان

محمد قبل البعثة

فى طريقنا للحديث عن « محمدٍ قبلَ الْبَعْثَةِ » نوردُ لمحاتٍ تاريخيَّةً عن الأرضِ التى وُلِدَ بها محمدٌ ، وعن أُسْرَتِه ، وأحداثِ الحياةِ مع هذه الأُسرةِ ، ثم نتحدَّث عن مولدِ محمدٍ ونشأتِهِ حتى بَعْثَتِه .

الحجـــازُ :

الحجازُ هو الموطنُ الأوَّلُ للدَّعْوَةِ الإسلاميَّةِ ، فيه وُلِدَ الرسولُ ، وعلى أَرْضِهِ خَطَا ، وهو منزلُ الْوَحْيِ ، ومشرِقُ النُّورِ ، نقل الإسلامُ الحجاز من مكانٍ مَغْمُورٍ (غير معروفٍ) إلى مركزِ حَضَارَةٍ غَمَرَت الكونَ ، ومن الحجازِ انْطَلَقَتْ صيحةُ الإِصلاحِ ودعوةُ الإسلامِ ، ولا تَزَال تَسِيرُ ، تُوقِظُ الغَافِلَ وتَهْدِى الضَّالَّ ، تُنْقِذ الملايينَ من عبادةِ الأحجارِ وعبادةِ الأَشجارِ ، وتَرُدُّ لَهم الْهُدَى وتوجِّهُهُمْ إلى عبادَةِ الله الخالصةِ وإلى التَّوحيدِ الْمُطْلَقِ الصَّافِى ، وتُمِدُّهم فى شئونِ دُنْياهم ودِينِهم بما يكفُل لهم السعادةَ ويُزيلُ عنهم الجاهليةَ التى سيطرتْ على الناسِ قروناً وقروناً .



خريطة الجزيرة العربية والحجاز بوجه خاص

من مكان عربى إلى مركز عالمى :

وقد نقل الإسلامُ الحجازَ من مكانٍ عربىٍّ إلى مكانٍ إسلامىٍّ أو قل عالَمِىٍّ ، وجديرٌ بالحجاز الذى نَبَتَ فيه محمدٌ أَنْ يصيرَ كذلك . فالنُّورُ الذى جاءَ به محمدٌ لا يعرِفُ وطنًا ولا حدوداً ، إنه نورٌ انْتَفَعَتْ به بقاعٌ كثيرةٌ من العالَمِ ولا تَزَالُ تَنْتَفِعُ .

والحجازُ من المناطقِ العربيَّة التى حَافَظَتْ على استقلالها ، فإذا كانَ نفوذُ الأحباشِ والفُرْسِ قد دخلَ اليمنَ ، وإذا كان نفوذُ الفرسِ والرومِ قد امْتَدَّ إلى الحيرةِ وغَسَّانٍ شمالىَّ الجزيرةِ العربيَّة ، فإن نفوذاً أجنبيًّا لم يَستَطِعْ أن يَتَعَمَّقَ فى قلبِ الجزيرةِ ويَصِلَ إلى الحجازِ ، ولعل ذلك يَرْجِعُ لموقِع الحجازِ فى الجزيرةِ العربيَّةِ ، ولحرصِ العرَبِ جميعًا على استقلالِ هذا المكانِ المقدَّسِ ، ثم لأنَّ الحجازَ لم يكنْ بلداً غَنِيًّا يجعَلِ المحتلِّينَ الأجانبَ يَطْمَعُونَ فيه ، ولعل المحاولةَ الوحيدةَ لإخضاعِ الحجاز للاستعمارِ كانتْ تلك التى قامَ بها عثمانُ بن الحُوَيْرِثِ ، فلقد تَنَصَّرَ عثمانُ هذا واتَّصل بقيصرَ ، وأرادَ أن يُلْحِقَ مكةَ بالرومِ ، وأَنْ يكونَ ملكاً عليها تابعاً لقيصرَ كملوكِ الغساسنةِ ، ولكنَّ أهل مكةَ ثارُوا عليه ، فَفرَّ

من وجهِهِمْ وحاولَ أن يؤلِّبَ عليهم القيصرَ وأتباعَهُ من الغساسنةِ ، ولكنَّ أهلَ مكةَ احْتالوا عليه حتى أَطْعَمُوه طعاماً مسموماً مات به ، وفَشِلَتْ هذه المحاولةُ التى لم تَتَكَرَّرْ .

مكة .. المدينة المقدسة :

هناك قصةٌ رواها البخاريُّ عن بئرِ زمزمَ نوجِزُها فيما يلى :

جاءَ ابراهيمُ بابنِهِ اسماعيلَ وهو طفلٌ رضيعٌ مع أُمِّهِ هَاجَرَ ، ووَضَعَهُمَا بالقربِ من مكانِ بئرِ زمزمَ الحالىِّ ، وتركَ لهما جِرَاباً فيه تَمْرٌ وسِقَاءً فيه ماءٌ ثم اتَّجَهَ إبراهيمُ عائداً فاتَّجَهَتْ له أُمُّ اسماعيلَ منادِيَةً : ياإبراهيمُ ، أينَ تذهبُ وتَتْرُكُنَا فى هذا الوادِى ؟ فلم يلتفت لها إبراهيمُ . فسألَتْه آللهُ أمَرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذَنْ لن يُضَيِّعَنَا .

وبعدَ أيامٍ نَفِدَ الطعامُ والماءُ وجَفَّ تبعاً لهذا لبنُ أُمِّ اسماعيلَ ، وجعلَ اسماعيلُ يبكِى ، وأخذَتْ أُمُّهُ تَتَرَدَّدُ مُهَرْوِلَةً بين جَبَلَىْ الصَّفا والمَرْوَةِ لعلَّها تجد من يساعدُها ويقدِّم لها الطعامَ والشرابَ ، وكان تردُّدُها بين الصفا والمروةِ سبعَ مراتٍ . ولذلك يَسْعَى الحُجَّاجُ بينهما سبعَ مرات ، ولما

أتَمَّتْ السابعةَ ظهر لها مَلَكٌ في صورةِ طائرٍ نَقَرَ الأرضَ فانْبَثَقَ منها الماءُ ، وجاءَ في رِوايةٍ أُخرى أن الماءَ انْبَثَق عندَ رِجْلِ إسماعيلَ التي كان يَدُقُّ بها الأرضَ وهو يَصِيحُ .

بئر زمزم :

تلك هي بِئْرُ زمزم ، وقد فاضَ ماؤُها على هذه الصورةِ تبعاً لما تَرْويهِ الرِّوَايَاتُ المقدَّسَةُ ، وقد جعلتْ هاجرُ تُقِيمُ حَوضاً حولَ الماءِ المنبثِقِ حتى لا يَسِيل .

هل كانتْ بئرُ زمزمَ أساساً للعمرانِ في هذه المِنْطَقَةِ ؟

نعم كانت كذلك ، فالماءُ في الصحراءِ هو الحياةُ ، وعندمَا يُوجَدُ الماءُ تَدِبُّ الحياةُ في المكانِ ، على أن الماءَ في هذه المَرَّةِ لم يكنْ ماءً فحسبُ ، وإنما شَاعَتْ هذه الصورةُ التي انبثَقَ بها هذا الماءُ ، وعَرَفَ البدوُ قصةَ البئرِ الجديدةِ والظروفَ التي نَبَعَ فيها ماءُ تلك البئرِ ، والطِّفلَ الذي نَبَعَ الماءُ عند مَضْرِبِ قَدَمِه . وأمثالُ هذه الأشياءِ عميقةُ التَّأْثِير ، ولذلك جَذَبَ هذا المكانُ الناسَ مما سَاعَدَ على عُمرانِ هذه المنطقةِ .

وبالقربِ من هذه البئرِ كان هناك مكانٌ فيه عمرانٌ قليلٌ ، وكان هذا المكانُ يُسَمَّى « مكةَ » ووقوعُه في منتصفِ

الطريقِ تقريباً بين جنوب الجَزيرةِ وشَمَالها ، جَعَلَه مكاناً مناسباً لاستراحةِ القوافِلِ المسافرةِ بين الشَّمالِ والجنوبِ ، كما كان البدوُ يَحُطُّون به رِحَالَهم فترةً قصيرةً أو طويلةً فى أثناءِ تَجْوَالِهم بالجزيرةِ ، وكان انبثاقُ بئرِ زمزمَ خيراً وبركةً على مكةَ ، فاتَّسع عُمرانُها وامتدَّ حتى اتَّصلتْ المبانى بالْبِئرِ ، كما كثر زُوَّارُها الذين يفِدُون للتبرُّكِ بماء زمزمَ ، ولرؤيةِ اسماعيلَ الذى انبثقَ الماءُ تكريماً له .

بناء الكعبة وتشريع الحج فى عهد إبراهيم :

وجاء إبراهيم بعد حينٍ ليزورَ ابنَه اسماعيلَ الذى كان قد شَبَّ ، ورأى إبراهيمُ المكانةَ التى حَظِى بها ابنهُ بين سكان مكةَ ، كما رأى كثرةَ الزائرينَ الذين يَأْتُونَ من كلِّ الجهاتِ لرؤيةِ اسماعيلَ وللتبرك بماءِ زمزمَ ، فبنى إبراهيمُ وابنُه الكعبةَ المشرَّفَةَ بأَمْر الله ، قال تعالى : « وإذْ يَرفَعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ ، رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إنك أنتَ السميعُ العليمُ ، رَبَّنا واجْعَلْنا مسلِمَيْن لك ومن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسلِمَةً لك وأَرِنَا مناسِكَنا وتُبْ علينا إنك أنتَ التَّوابُ الرحيم » . (البقرة ١٢٧ - ١٢٨) .

والكعبةُ المشرَّفة هي بيتُ الله أو البيتُ العتيقُ ، وهي بناءٌ مربَّعٍ تقريباً ، بُنِيَ فى أوسعِ نقطةٍ من الوادِى ، ويبلغُ ارتفاعُه حوالى عشرةِ أمتارٍ ، وفى الجدارِ الشرقيِّ منه يقعُ بابُ الكعبةِ ، ويرتفعُ هذا البابُ عن الأرض بحوالى مترين .

ولما أتمَّ إبراهيمُ بناءَ الكعبةِ هتَفَ مناجِياً رَبَّه « ربنا إنِّى أسْكَنْتُ من ذُرِّيَّتِى بوادٍ غيرِ ذِى زَرْعٍ عندَ بيتِكَ المحرَّمِ ، ربَّنَا لِيُقِيمُوا الصلاةَ فاجْعَلْ أَفْئِدَةً من الناسِ تَهوِى إليهم وارْزُقْهُمْ من الثمراتِ » . (إبراهيم ٣٧) . فاستجابَ اللهُ لدعائِه وعلَّمَهُ الطريقَ لتحقيقِ ذلك بقولِه : « وأَذِّنْ فى الناسِ بالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وعلى كُلِّ ضامِرٍ ، يأتِينَ من كلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » (الحج ٢٧) فأذَّن إبراهِيمُ بالحجِّ واستجابَ له الناسُ ، ومنذُ ذلك الحينِ والناسُ يذْهَبُونَ حاجِّينَ ملبِّينَ من مُخْتَلِفِ البلادِ ومُخْتلِفِ النَّواحِى ، بعضُهُم رجالٌ أى يَأْتُونَ ماشِينَ على أَرْجُلِهِمْ ، وبعضُهم يَرْكبُون الخيولَ والجِمالَ التى أصْبَحتْ ضامِرَةً أى هزيلةً لِبُعْدِ المسافاتِ التى قطعتها هذه الحيواناتُ .

الحـــرم :

وكانتْ الشَّعائِرُ الدينيةُ فى أَوَّلِ الأَمرِ تُؤَدَّى فى الكعبةِ ، ثم ضاقَ هذا البناءُ الصغيرُ بزوَّارِهِ والحَاجِّينَ إِليهِ ، ولذلك اتَّفقَ العربُ منذُ عُهُودٍ طويلةٍ على اتِّخاذِ جُزْءٍ من الأرضِ حَوْلَ الكعبةِ لِيكونَ مكاناً للشَّعائِرِ الدينيةِ ، وقَدَّسُوا هذا الجزءَ وسَمَّوْهُ حَرَماً ، ولما جاءَ الاسلامُ وفُرِضَتْ الصَّلاةُ كانتْ الصلاةُ تُؤَدَّى فى هذا الْجُزْءِ ، ولذَلك سُمِّىَ « المسْجِدَ الحَرامَ » وقد ظَلَّ ذلك الجزءُ من الأرضِ فراغاً لا يُحيطُ به سُورٌ حتَّى عَهْدِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ ، وكانتْ تُحيطُ به دُورٌ من أَكثرِ جهاتِه .

وفى عَهْدِ عُمَرَ أصبحَ واضحاً أَنَّ هذا المكانَ لم يَعُدْ يَتَّسِعُ لِوُفُودِ الحُجَّاجِ التى تَأْتِي من كلِّ جِهاتِ العالَمِ الإِسلامىِّ ، فرأى عمرُ ضَرُورَةَ تَوْسِيعِهِ ، كما رَأَى ضرورةَ فَصْلِه عن هذه الدُّورِ بإِقامةِ جِدَارٍ يُحيطُ به ، فاشْتَرَى عمرُ دوراً وهَدَمهَا وزادَها فيه ، واتَّخَذَ للمسجِدِ جداراً دونَ قامةِ الإِنسانِ .

وابتَاعَ عثمانُ منازِلَ أُخْرَى وأَدْخَلَها فى المسجِدِ .

وعُنِىَ الخلفاءُ والملوكُ والسَّلاطينُ بالكعبةِ والمسجدِ الحرامِ ، فى جميعِ العُصورِ حتى العهدِ الحاضرِ ، وكانتْ مصرُ تُقدِّمُ كُسْوَتَها كلَّ عامٍ حتى سنة ١٩٦٤ ، وكان ملوكُ المسلمين ورُؤَساؤُهم جميعاً يهتمُّون بتعميرِ البيتِ المقدَّس وتحسينِه .

وتُسَمَّى مكةُ « أمَّ القُرَى » لأهَمِّيَّتِها ، قال تعالى : « وهذَا كتابٌ أنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الذى بيْنَ يَديَهْ ولِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى ومَنْ حَوْلَها » (الأنعام ٩٢) .

حكومةُ مكة والأَشهرُ الحُرُم

لم تَكُنْ مَكَّةُ منذُ هتف إبراهيمُ بالحَجِّ واستجابَ له الناسُ مِلْكاً للمكِّيِّينَ ، وإنما كانتْ مكاناً مُقَدَّساً لدى العربِ جميعاً ، ومن هُنَا فَكَّرَ العربُ فى طريقةٍ تُهَيِّئُ لهم فريضةَ الحَجِّ فى أَمْنٍ ويُسْرٍ ، فاتَّفَقَتْ كلمةُ العربِ على تحريمِ القتالِ فى الأَشهرِ الحُرُمِ وهى الشهورُ التى يَذْهَبُ فيها العربُ إلى مكةَ للحجِّ أو العمرةِ ثم يعُودُونَ إلى بلادِهم ، وهذه الشهورُ هى ذو القَعْدةِ وذُو الحَجَّةِ والمُحَرَّمُ للحجِّ ، وشهرُ رجب للعمرةِ ، ويَرْوِى الطبرىُّ أن قُصَىَّ بنَ كلابٍ – وسنتحدث عنه بعد قليل – عندما أرادَ أنْ يَعُودَ من الشام ليلحقَ بأعمامِهِ وأُسرتِه بمكةَ قالت له أُمُّه : يا بُنَىَّ ، لا تَعْجَلْ بالخروجِ حتَّى يدخلَ عليك الشهرُ الحرامُ فتخرجَ فى حَاجِّ العربِ ، فإنِّى أَخْشَى عليك أَنَ يصيبَكَ بعضُ الناس ، فأقامَ قُصَىٌّ حتى إذا دَخَلَ الشهرُ الحرامُ وخَرَجَ حاجُّ قُضَاعَةَ فخرجَ معهم ..

وبجانبِ الأشهرِ الحُرُمِ اتَّفَقَ العربُ على تحريمِ القتالِ عند حَرَمِ مكةَ دائماً ، وقرَّرُوا أنَّ مَنْ دَخَلَ الحرمَ كان آمناً ، ومن هنا كانتْ الأسواقُ الأدبيَّةُ والتجاريَّةُ تُقَامُ حَوْلَ الحرمِ دونَ أن

يَمَسَّ المشْتَرِكينَ فيها سوءٌ ، إذ كان ذلك باتفاقِ الجميعِ لمصْلحةِ الجميعِ ، ولما وقعتْ الحربُ بيْنَ قريشٍ وكِنانَةَ من جهةٍ ، وبين هوازنَ من جهةٍ أُخْرَى على حدودِ الحرمِ ، سُمِّيَتْ حربَ الفِجَارِ لأنها مَسَّتْ حُرْمَةَ البيت ، وقد اشتركَ فيها الرسولُ كما سنرى فيما بعد .

وكان تحريمُ القتالِ فى الأشهرِ الحُرُمِ وفى مكةَ نظاماً قديماً ، يرجع إلى العهودِ الأُولى لِتَشْرِيعِ الحجِّ ، وقد جَدَّد العربُ قُبَيْلَ الإسلامِ الأخذَ بهذا النظامِ .

تلك كانتِ الصِّلَةُ بينَ السلطةِ فى مكةَ وبين السلطاتِ المخْتَلِفةِ بالجزيرةِ العربيَّة ، ونعودُ بعدَها للحديثِ عن الذين كانتْ السلطةُ فى أَيديهم بمكةَ :

العماليــق :

قبلَ عَهْدِ إسماعيل كانتْ السلطةُ بمكةَ فى يَدِ قبائلَ عربيةٍ تُسَمَّى « العَمَاليقَ » ولم تكنْ لمكةَ فى ذلك الحينِ مكانَتُها المقدَّسَةُ ، والعماليقُ هم أَقْدَمُ مَنْ كانَ لهم السلطانُ بمكةَ .

جـــــرهم :

ونَزَحَ إلى مكةَ من اليمنِ قبائلُ من جُرْهُم ، وسكنوا مع العماليق فيها ، ثم غَلَبُوهم عليها وأخْرجُوهم منها ، وأصبحَ الأمرُ لجرهم فى مكةَ ، وفى هذه الأثناءِ وَفَدَتْ هاجَرُ ومعها إسماعيلُ ، ولما شَبَّ إسماعيلُ اتَّصَلَ بُجرْهُمَ وتزوَّج منهم ، وبَنَى البيتَ هو وأبُوه كما مر ذكرُه ، وتكوَّنتْ حكومةُ مكةَ لحمايةِ الحَجيجِ والسَّهَرِ على مصلحَتِهم ، وكان للجَرَاهِمَةِ أمورُ السِّياسةِ والحربِ وتفرَّغَ إسماعيلُ لخدمةِ البيتِ وأمورِ الدِّينِ ، وكان ذلك شبهَ أَساسٍ للوظائِفِ التى ظَهَرَتْ واضحةً فيما بعدُ ، وهى السِّقَايَةُ والرِّفادَةُ واللواءُ وكانتْ لقادةِ جُرْهم ، أما الحجَابةُ فكانتْ لإسماعيلَ ، وسنتكلمُ عن هذه الوظائِفِ فيما بعد .

خـزاعـــة :

وبعدَ إسماعيلَ زادَ ثراءُ جُرْهم وغِنَاهم فانْغَمَسُوا فى الملاذِّ ونَسَوْا واجباتِهم الدينيَّةَ ، وأهملوا السَّهَرَ على بئرِ زَمْزَم وعلى البيتِ الحرامِ ، حتى نَضَبَ ماءُ البئرِ، فهرِعَتْ قبيلةُ خُزاعة

واستولَتْ على الأمرِ من جُرْهم ، وكان ذلك حوالى سنة ٢٠٧ ق . م . وأصبحَ لخزاعةَ وظائفُ الكعبةِ كلُّها ما اتَّصلَ منها بالرياسةِ السياسيَّةِ أو الرياسةِ الدينيَّةِ .

قــريش :

فى سنة ٤٤٠ م انْتَقَلَتْ السلطاتُ إلى قريشٍ التى كانتْ قد نَزَحَتْ إلى مكةَ قبلَ ذلك ، فأصبحتْ أمورُ الكعبةِ كلُّها فى يد قُصَيٍّ بنِ كلابٍ الجَدِّ الرابعِ للرسولِ ، وانتقلَتْ السلطةُ من قصيٍّ إلى أولادِه على ما سيأتى تفصيلُه فيما بعد .

وكانَتْ أُمُّ قُصَيٍّ قد انتقلتْ به وهو طِفْلٌ بعدَ موتِ أبيهِ كلابٍ ، من مكةَ إلى الشَّامِ لتعيشَ مع زَوْجها الجديدِ ربيعةَ بنِ حَرَامٍ ، فَشَبَّ قصيٌّ بالشامِ لا يَعْرِفُ له أباً غيرَ ربيعة حتى نَمَا ، ثم عيَّرَهُ بعضُ بنى رَبيعةَ بأنَّه ليسَ منهم ، فسأَلَ أُمَّه ، فقالت له : إنك يا بُنَىَّ أكرمُ منهم نَسَباً ، وأنتَ ابنُ كلابِ بنِ مُرَّة ، وأهلُك بمكةَ ، فَرَحَلَ لهم كما سبقَ القولُ ، وهناك تَزَوَّجَ فتاةً من خُزَاعَةَ كان لأبيها السلطانُ على الكعبةِ ، وقد مهَّدَ له هذا أنْ يستولىَ على السلطانِ بعدَ موتِ هذا الأبِ ، والتَفَّ

حولَه قومُهُ لِمَـا رَأَوْا فيـه من مُرُوءَةٍ وشهامـةٍ ، ونَصَرُوهُ على خزاعةَ فَخَلَصَ له الأمرُ .

دارُ النَّدْوةِ ووظائفُ الكعبةِ :

وقصيٌّ هذا هو الذى بَنَى دارَ النَّدوةِ ليجتَمِعَ فيها أَهلُ مكةَ للتَّشَاوُرِ فيما يُهِمُّهُم تحتَ إشرافِه . وهو الذى رتَّبَ وظائفَ الكعبةِ وحدَّدَ مَدْلُولاتها ، وهذه الوظائفُ هى :

السِّقايَة : كان الماءُ عَزيزاً بمكة بعدَ رَدْمِ بئرِ زمزم (أَعَـادَ عبدُ المطَّلب حَفْرَها فيما بعد) فكان من يَلِى أَمْرَ السِّقايَةِ يُحْضِرُ الماءَ من آبارٍ بعيدةٍ ، ويضعه فى أحواضٍ ويحلِّيهِ بشىءٍ من التَّمْر والزبيبِ ، ويُعِدُّه ليشربَ منه الحُجَّاجُ .

الرِّفادَةُ : وهى تَقْدِيمُ الطعامِ لغير القادِرينَ من الحجَّاجِ ، ويُرْوَى أن قصيًّا فَرَضَ على قريشٍ أن يقدِّمَ كلٌّ منهم شيئاً إليه ليصنـعَ طعاماً لفقـراءِ الحجيـجِ ، وقـال قُصَىٌّ فى ذلك : يامَعْشَرَ قريشٍ ، إنكـم جِيرانُ اللهِ وأهـلُ بيتِـه ، وإن الحاجَّ ضَيْفُ الله وزُوَّارُ بيتِه ، فاجْعَلوا لفُقَرَائِهم شراباً وطعاماً أيامَ هذا الحجِّ حتى يَصْدُرُوا عنكم (أى حتى يعودوا) .

فَفَعَلوا ، فكانوا يُخْرِجونَ لذلك كلَّ عامٍ جزءاً من أموالِهم فَيَدْفَعُونَه إليه ، فيصنَعُه طعاماً للناسِ .

اللواء : ومعناها الدعوةُ إلى الحربِ برفْعِ رايةٍ فوق رُمْحٍ ، ويَتْبَعُها قيادةُ الجيوشِ .

الحِجابةُ : وهى خِدْمَةُ الكعبةِ وتولِّى مَفاتِيحِها .

وبعدَ قصيٍّ انتقلتْ وظائفُ الكعبةِ إلى ابنِه عبدِ الدَّارِ لكبرِ سِنِّه مع أنَّ ابْنَه الآخَرَ عبدَ مَنافٍ كانَ أعظمَ منه ذِكراً وأعلى شأناً ، ولذلك نجدُ أبناءَ عبد منافٍ يريدونَ أنْ يَأْخُذُوا لأنفسهم هذه الوظائفَ من أبناءِ عبدِ الدارِ وانضَمَّ بعضُ قريشٍ إلى أبناءِ عبدِ منافٍ وانضمَّ آخرونَ إلى أبناءِ عبدِ الدَّارِ وأوْشَكَتْ أنْ تقعَ بينهم حروبٌ طاحِنَةٌ لولا نَجاحُ بعضِ المساعِى التى قَسَمَتْ وظائفَ الكعبةِ بينَ هؤلاءِ وأولئك ، فأُعْطِيَتْ السقايةُ والرِّفادَةُ لأبناءِ عبدِ منافٍ وأعطيت الحجابةُ واللواءُ والنَّدوةُ لبنى عبدِ الدارِ . وقد تولَّى هاشمٌ بنُ عبدِ منافٍ حينذاك السقايةَ والرفادةَ وتولَّاها بعدَه أخوه المُطَّلِبُ ثم عبدُ المطَّلِبِ بنَ هاشم ، وفى عهدِ عبدِ المطلب عزَّ شأنُهُ وذَاعَ

صيتُهُ وأصبحَ مرجعَ كلِّ الأمورِ بمكةَ ، وفى عهدِه كذلك حاولَ أَبْرَهةُ الحبشىُّ هَدْمَ الكعبةِ على ما سنوضحه فيما يلى :

عــامُ الفيــلِ

كانتْ الحبشةُ قد استولتْ على بلادِ اليمنِ ، وآلَ أَمْرُ الحبشةِ باليمنِ إلى أَبْرَهَةَ بعدَ أن فَتَكَ بأرياط قائدِ النَّجَاشىِّ ، ولما رأى أبرهةُ غضبَ النجاشىِّ عليه لفَتْكِهِ بأرياط أَرادَ أبرهةُ أن يُرْضِىَ النجاشىَّ فكتبَ اليه يقولُ : « سأَبْنِى إليك كَنِيسةً لم يَبْنِ مِثْلَها أحدٌ قطُّ ، ولستُ تاركاً العربَ حتى أَصرِفَهم لها عن بَيتِهم الذى يَحُجُّون إليه ، ويبدو أن أبرهةَ أرادَ أن يُهَدِّىءَ ثورةَ النجاشى ، أما اتجاهُه الحقيقىُّ فكانَ سياسيًّا أكثَر منه دينيًّا ، فقد هَالَهُ (أدهشه) تَقْدِيسُ العربِ لمكةَ وسَيْرُهم إليها فى إجلالٍ وطاعةٍ حاملينَ الهدايَا والهِبَاتِ إلى سُكَّانها ، ولذلك عَزَمَ على أنْ يَبْنِىَ بيتاً أعظمَ من الكعبةِ وأن يَدْعُوَ الناسَ إلى أن يُحَوِّلُوا وجوهَهم ومزارَهُم إليه ، فبَنَى كنيسةً سمَّاها « القليس » بالرخام وجَيِّدِ الخشبِ المذهَّبِ ، وكانتْ على مَكانٍ مرتفعٍ بحيثُ أنَّ مَن وقف بها كان يُطِلُّ على مدينةِ « عدن » ونقل أبرهةُ إليها من قَصْرِ بلقيسَ الأعمدةَ من

الرُّخامِ المجزَّعِ والحجارةَ المنقوشةَ بالذَّهب ، ونصبَ فيها صُلْبَاناً من الذَّهب والفضةِ ، ومنابِرَ من العَاجِ والأَبَنُوسِ ، ودَعَا الناسَ إلى الحجِّ اليها ، فَغَضِبَ العربُ ، وثار رجلٌ من بنى مالكِ بنِ كِنانة ، وأقسَمَ لَيَعْبَثَنَّ بهذه الكَنيسةِ ، وقَدِمَ اليمنَ ودخلَ الكنيسةَ كأنه حاجٌّ جاء للعبادةِ ، فلما أظلم الليلُ وخَلَا المكانُ قام يَعْبَثُ بأثاثِ الكنيسةِ ويلَطِّخُ جدرَانها بالقاذورات . ولما علم أَبْرَهَةُ فى الصباحِ بما أصَابَ كنيستَه ، وعَرَفَ أن عربيًّا كان يبيتُ بها وأنَّه المتَّهم بالعَبَثِ بالبناء المقدَّسِ ، حَلَفَ ليهدِمَنَّ الكعبةَ ، وسارَ فى جيشٍ كبيرٍ من الأحباشِ سيَّر أمامه الفِيَلَةَ ، حتى حطَّ رحالَه بالقربِ من مكة .

كان سيدَ مكةَ فى هذا الوقتِ عبدُ المطلب بنُ هاشمٍ جَدُّ الرسولِ صلواتُ الله وسلامُه عليه ، وقد أَخَذَ أبرهةُ إبلًا يَمْلِكُها عبدُ المطلب كانت ترْعَى عندَ المكانِ الذى نَزَلَ فيهِ أبرهةُ ، وأرسلَ إليه يَطْلُبُه ، فلما جاءَ عبدُ المطلب قالَ له أبرهةُ : إنى لم أجيءْ لحربكُم بَلْ جئتُ لأهدِمَ هذا البيتَ ، فإنْ تعرَّضتُمْ لى حارَبتُكم وإلا فلا حَاجَةَ لى فى دمائِكم .

قال عبد المطلب : لا قوةَ لنا فى التعرضِ لك ، والذى أطلُبُه منك أن تَرُدَّ علىَّ إبلى التى أَخَذْتَها .

قال أبرهة : كنتُ هبتُك حين رأيْتُك ، ثم زهدتُ فيك حين كلَّمْتَنى ، أتكلِّمُنِى فى شأنِ الإِبِل وتتركُ البيتَ الذى هو دينُكَ ودينُ آبائِك ؟ .

قال عبد المطلب : أمَّا الإبلُ فهى لى ، وأمَّا البيتُ فله ربٌّ يَحْمِيه .

وعَرَضَ عبدُ المطلب على أبرهةَ ثُلُثَ أموالِ تِهامَةَ على أن يرجِعَ دونَ أن يهدِمَ البيت ، فأبى أبرهةُ وأصَر على هَدْمِ هذا البناءِ . فعاد عبدُ المطلبِ وطافَ بالبيتِ مُنْشِداً والناسُ يردِّدُون :

يارَبِّ لا أرْجُـو لهم سِوَاكَـا
يارَبِّ فامْنَـعْ منهمُ حِمَــاكا
إنَّ عدوَّ البـيـتِ مَنْ عادَاكا

واستجابَ اللهُ لهتافِ عبدِ المطلب ، ويَحْكِى القرآنُ الكريمُ نهايةَ أصحابِ الفيلِ فى الآياتِ الكريمةِ : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ

ربُّك بأصحابِ الفيلِ ، ألمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمُ فى تَضْلِيلٍ ، وأرْسلَ عليهم طَيْراً أبابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بحِجارةٍ من سِجِّيلٍ ، فجَعَلَهُم كعصفٍ مأكولٍ » .

وكانت حادثةُ الفيلِ كبيرةَ الأهمِّيةِ عِندَ العربِ فأخَذُوا يؤرِّخُونَ بها أحْدَاثَهم .

وفى عام الفيلِ ولدَ محمد صلواتُ الله وسلامهُ عليه .

تعليــق :

فى حديثٍ تليفزيونى بمناسَبَةِ مولدِ الرسولِ صلـواتُ الله عليه ، خَطَرَ ببالِي خاطرٌ يَرتَبِطُ بعامِ الفيـلِ وتدميـرِ جيشِ أَبْرَهةَ ، ذلك أنَّ الكعبةَ هُوجِمَت عدَّةَ مراتٍ قبـلَ الإسلامِ وبعده ، ورماها جيشُ الأُمويِّينَ بالمجانِيقِ ، واحترقتْ ، وهاجَمَها القرامطةُ وأخَذُوا الحَجر الأسودَ ، ولم تُدَافِعْ عنها قوةٌ سماويَّةٌ إلا فى عامِ الفيلِ ، وأَعْتقِدُ أنَّ ذلك كانَ تكـريماً لمولد المصْطَفَى صلواتُ الله عليه .

الرسولُ منذُ وِلِدَ إلى أنْ بُعِث

تحدَّثْنَا آنِفاً عن عبدِ المطَّلِبِ بنِ هاشِمٍ جدِّ الرسولِ الذي آلتْ له السقايةُ والرفادةُ وهُمَا أهَمُّ وظائِفِ الكعبةِ ، ونتحدثُ فيما يَلِي عن وَالِدَيْ الرسولِ ، ثم نتحدَّثُ عن مولِدِ الرسولِ ورَضَاعَتِه ونَشْأَتِه ..

عبدُ اللهِ بنُ عبدِ المطلب :

رُوِيَ أنَّ رَجُلًا جاءَ إلى الرسولِ صلواتُ اللهِ عليه فقال له ...... يا ابنَ الذَّبِيحَيْنِ . فلَمْ يُنْكِرْ الرسولُ عليه ذلك ، والذبيحُ الأوَّلُ هو إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ عليهما السلامُ ، والذبيحُ الثانى هو أبو الرسولِ عبدُ الله بنُ عبدِ المطلب .

وقد قَصَّ القرآنُ الكريمُ قِصَّةَ الذبيحِ الأوَّلِ فى قولِهِ تعالى : « فبشَّرْنَاهُ بغُلامٍ حَلِيمٍ ، فلما بَلَغَ معه السَّعْىَ قال يا بُنَىَّ إنى أَرَى فى المنامِ أنِّي أذْبحُكَ فانظُرْ ماذا تَرَى ، قال : يا أبتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ ستَجِدنى إنْ شاءَ اللهُ من الصَّابرينَ ، فلما أسْلَما (خضعا لأمرِ الله) وتَلَّهُ للجَبِينِ (جعله ينامُ ووَجْهُهُ وجبينُه

إلى الأرضِ) ، وناديْناه أنْ يا إبراهيمُ قد صدَّقتَ الرُّؤْيَا ، إنَّا كذلك نَجْزِى المُحْسِنِينَ إنَّ هذا لهُوَ البلاءُ المُبِينُ ، وفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عظيمٍ ، وتَرَكْنَا عليهِ فى الآخِرِينَ ، سلامٌ على إبراهيم » . (الصافات ١٠١ - ١٠٩) **وقد أوْرَدْنا قصةَ إسماعيلَ عليه السلامُ مفصَّلةً فى الجزء رقم ٣٢ من هذه المكتبة الإسلامية .**

أما قصةُ الذبيحِ الثانى فَتَرْوِيها لنا كتبُ التاريخ ، وهى تُرِينَا بعضاً من عاداتِ العربِ ، فالعربُ كانوا يتقرَّبُونَ إلى الآلهةِ بتَقديمِ القرابينِ التى تكونُ أحياناً من دماءِ البَشَرِ ، كما انْتَشَرَتْ عندَهم عادةُ الضَّرْبِ بالقِداحِ (القرعة) واتباعُ ماتُوصِى به هذه القداحُ ، وخلاصةُ هذه القصةِ أنَّ عبدَ المطلبِ كانَ عليه سِقَايَةُ الحاجِّ كما ذكرنا ، وكانَ عليه أن يُحْضِرَ الماءَ لذلك من آبارٍ بعيدةٍ ويَضَعَه فى أحواضٍ ليشرَبَ منها الحجيجُ ، وكانَ هذا العملُ صعباً يحتاجُ إلى أيْدٍ كثيرةٍ وإلى جَهْدٍ كبيرٍ ، ولذلك فكَّرَ عبدُ المطلبِ فى إعادةِ حَفْرِ بئرِ زمزم ، ولكنَّه وَاجَهَ كثيراً من عِنادِ قُرَيشٍ ، ولولا صبرُه ودَأْبُهُ مانَفَّذَ هذا العَزْم ، ومن أجلِ هذا نَذَرَ لَئِنْ وُلِدَ له عشرة بَنِينَ ثم شَبُّوا

وأَصْبَحوا يساعِدُونَه لَيَنْحَرَنَّ واحداً منهم عندَ الكعبة تقرُّباً لآلهةِ قريشٍ ، فلمَّا حقَّقَ اللهُ أُمْنِيَتَه وأصبَحله عشرةُ أَولادٍ ، أرادَ الوفاءَ بنذرِه ، فَجَمَعَ أولاَدَه عند صنم « هُبَلَ » وهو أعظمُ الأَصنامِ التى كانت تَعْبُدُها قريشٌ ، وطلبَ إلى صاحبِ القِداحِ أن يَضْرِبَ على الأولادِ ، فخرَجَتْ القُرعةُ على عبدِ اللّٰه وهو أصغَرُ أولادِ عبدِ المطلب وأَحَبُّهم إليه . فأخذَه عبدُ المطلبِ بيدِه وأخذَ الشَّفْرةَ (السكينَ) وذَهَبَ به ليذبَحَه عند الأصنامِ التى تُقَدَّمُ عندها القَرَابينُ ، فَمَنَعَتْه قريشٌ ومَنَعَهُ بنُوه من ذلك ، وقالُوا : لا تَذْبَحْه لعلَّنا نَجِدُ طريقاً لنَجاتِه ، وأشارُوا عليه أن يَنْطَلِقَ إلى عَرَّافَةٍ شهيرةٍ ليستَشِيرَها . فَذَهَبَ إليها ، فأشارَتْ عليه أن يُعِيدَ القُرْعَةَ بين عبدِ اللّٰه وبين عشرةٍ من الإبلِ . فإنْ خَرَجَتْ القرعةُ على الإبل فلْتَكُنْ هذه ديةً لعبدِ اللّٰه ، وإنْ خَرَجَتْ على عبدِ اللّٰهِ زادَ عليها عشرةً أخرى . . . . وهكذَا حتى ترضَى الآلهةُ بالفداءِ فاستجابَ عبدُ المطلبِ لرأيِ العرَّافةِ ، وظلَّتْ القرعةُ تَخْرُجُ على عبدِ اللّٰه حتىَّ بَلَغَتْ الابلُ مائةً ، فَخَرَجَتْ على الإبلِ فَنَحَرَها عبدُ المطلب ، وتَرَكَ لحمَها حلالاً للناسِ والحيوانِ والطيرِ .

زواجُ عبد الله :

ونجَا عبدُ الله بذلك من الذَّبحِ ، ولكنَّ هذه الحادثةَ أذَاعَتْ اسمَه وأكْسَبَتْهُ شُهرةً عظيمةً ، وأصبحَ موضعَ عنايةِ الناسِ وحديثِهم وحبِّهم ، وزوَّجَه والدُه بعدَ ذلك من آمنةَ بنتِ وَهْب ، وكانتْ عائلتُهَا قد أسهمتْ بنصيبٍ كبيرٍ فى الدفاعِ عنه لينجوَ من الذبح ، وعاشَ عبدُ الله مع آمنةَ فترةً قصيرةً بعدَ الزواجِ ، ثم تركَها وسافرَ مُتاجِراً إلى الشامِ . وماتَ فى الطريقِ دونَ أنْ يَعُودَ إلى زوجَتِه ، ولكنْ بعدَ أنْ حَمَلَتْ آمنةُ بطفلٍ قُدِّرَ له أن يكونَ أعظمَ شخصيَّةٍ فى تاريخِ البشريةِ . فكأنَّما نَجَا عبدُ الله من الذبحِ لغرضٍ واحدٍ هو الالْتِقاءُ بآمنةَ وتكوينُ هذا الجنينِ ، وبَعْدَ أنْ أدَّي عبدُ الله هذا الغَرَضَ انتهتْ مُهِمَّتُهُ ، فَرَحَلَ إلى الشامِ ورَحَلَ عن الحياةِ .

آمنــةُ بنتُ وَهْبٍ :

إذا كان عبدُ الله قد أدَّى مُهِمَّتَه فى الحياةِ بزواجِه بآمنةَ وتكوينِ هذا الجنينِ ، فإنَّ مهِمةَ آمنةَ لم تَنْتَهِ بذلك ، فالحَمْلُ والحَضَانةُ والإشرافُ على الطفلِ استدْعَى أنْ تمتدَّ الحياةُ بآمنةَ بضعَ سنين ، وتذكرُ الرواياتُ التاريخِيَّةُ سرورَ آمنةَ بزوَاجِها من عبدِ الله ذِى الشبابِ الغَضِّ والشهرةِ الذائعةِ ، وقد كان

موتُ عبدِ الله بعدَ هذا الالتقاءِ القصيرِ يُمْكِنُ أن يحطِّمَ قلبَ آمنةَ ، ولكنَّ التاريخَ يُثْبِتُ لنا هدوءَ آمنةَ فى غَمْرةِ الحُزْنِ ورِضَاها مع الأَسىَ ، وقد وَجَدَتْ آمنةُ سَلْوَاها فى الجنين وفى الطفلِ عندما وَضَعَتْه ورَأَتْه يَنْمُو عاماً بعدَ عامٍ ، ولكنها سُرْعانَ ما ماتَتْ عندَما كان طفلُها فى السادسةِ من عُمْرهِ ، وكانتْ وفاتُها فى موضعٍ يُقالُ له « الأبواء » بين مكةَ والمدينةَ .

لقد شاءَ اللهَ فيما يَبْدو ان يَتولى هو تربيةَ محمدٍ وأنَ يَنزِعَهُ من أُسْرَتِهِ ليُصْبِحَ فى رعايةِ الله ، وقد عبَّرَ القرآنُ عن هذا المعنى بالآيةِ الكريمةِ : « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيما فَآوَى » (سورة الضحى الآية السادسة) ، وعبَّرَ عنه الرسولُ بقوله : أدَّبَنِى رَبىِّ فأحسنَ تأدِيبِى » .

مولدُ محمدٍ ، وحياتُه بمكةَ قبلَ الْبَعْثَة :

كانَ محمدٌ ثمرةَ هذا الالتِقَاءِ القصيرِ ، وقد وُلِدَ فى التاسعِ أو الثانى عَشَرَ من شهر ربيع الأول (٢٠ أبريل سنة ٥٧١ م) وكان مولدهُ فى مكانٍ غير بعيدٍ من الكعبة ، وقد أُقِيمتْ

مَكتَبَةٌ فى المكانِ الذى وُلِدَ فيه عليه الصلاةُ والسلامُ ، ويَؤُمُّها (يزورها) كثيرٌ من الحُجَّاجِ ليَعيشُوا فَتْرَةً من الزمنِ فى المكانِ الذى شَهِدَ مولِدَ المصْطفى . ولم يَرَ محمدٌ أباه ولذلك كَفَلَه جَدُّه عبدُ المطلب . .

محمد عند مرضعته حليمة السَّعْدِية :

كان سادةُ العربِ يحرِصُونَ على أنْ يَخْتارُوا المرضعاتِ من الباديةِ ليُرَبَّى الأطفالُ هناكَ حيثُ الهواءُ النَّقِىُّ واللغةُ الفُصْحَى ، وقد رَغِبَتْ آمنةُ أن يكونَ لابنها ما لأَوْلاَدِ سادة العربِ ، فطلبتْ من عبدِ المطلبِ أن يَبْحَثَ عن مُرْضعَةٍ لمحمدٍ وعَمِلَ عبدُ المطلَب على تحقيقِ رغبةِ الأُمِّ .

وفى يومٍ دخلَ عبدُ المطلبِ على آمنةَ ومعه حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّة ، ويذكر ابنُ هشام أن حليمةَ هى ابنةُ أبى ذُؤَيْبٍ عبدِ الله ابنِ الحارثِ ، وزَوْجُها هو الحارثُ بنُ عبدِ العُزَّى ، وهى من بنى سعدِ بنِ بكر ، ولها أولادٌ من زَوْجِها أشهرُهم « الشَّيْماء » وكانت الشيماءُ تُساعِدُ أُمَّها فى حضانَةِ الرضيعِ « محمد » .

ويَرْوِى ابنُ هشام أن المرضعاتِ وَفَدنَ من الباديةِ إلى مكةَ ليحصُلْنَ على الأطفالِ الرُّضَّع ، وليَنَلْنَ الأجورَ نظيرَ إرضاعِهِم ، وقد أَعْرَضَتْ كثيراتٌ من المرضعاتِ عن أَخْذِ محمدٍ إذْ كانَ يتيماً يَقِلُّ الأملُ فى عطاءِ جَدِّه ، وتقولُ حليمةُ إنَّ المُرْضعاتِ وَجَدْنَ الأطفالَ ، ولم أجِدْ أحداً ، فقلتُ لزوجى : إننى أَكْرَهُ أنْ أعودَ بدونِ طفلٍ ، وأشرتُ عليهِ أنْ نأخذ محمداً ، فقبلَ رأيى ، وأخذْناه ، وتقرِّرُ حليمةُ أَنَّ الخيرَ والبركةَ عَمَّتْ حياتَهم منذُ ذلك اليوم ، فقد وَفَدَتْ إلى مكةَ راكبةً دابَّةً هزيلةً كانتْ تَنْقَطِعُ بها عن الرَّكْبِ ، ولكنَّها حينَ العودةِ إلى الباديةِ كانت دابَّتُها أنشطَ الدَّوَابِّ حتى سَبَقَتْ الجميعَ ، وكانت لها أغنامٌ يَقِلُّ فيها اللبنُ أو يَنْعَدِمُ ، ولكنها بعد ذلك اليومِ كانتْ أغنامُها أكثرَ الأغنامِ لَبَنًا ونَسْلًا .

ولما تَمَّ فِطامُ محمدٍ عادتْ به حليمةُ إلى مكةَ ، واستأْذَنَتْ أمَّه وجدَّه أن تَعُودَ به مرةً ثانيةً فقد أحبَّتْه وأحبَّه ذَوُوها ، ورأتْ آمنةُ أَنَّ محمداً مرتبطٌ بأمِّهِ من الرضاعِ ، وبابْنَتِها الشَّيْماء ، فوافقتْ هى وعبدُ المطلب على إعادتِه ، وفى هذه المرحلةِ كان يخرجُ أحياناً مع أولادِ حليمةَ الذين كانوا يَرْعَوْن أغنامَها .

ويذكر ابنُ هشامٍ أن محمداً فى هذه السنِّ المُبكِّرَةِ كانَ يميلُ إلى العُزْلَةِ ، ولا يَشْتَرِكُ فى لعبِ الأطفال الا بقدرٍ قليلٍ .

عودةُ محمدٍ إلى مكة :

عادَ محمدٌ إلى مكةَ ، وهو فى السنةِ الرابعةِ من عمرِه تقريباً ، وماتَتْ أمُّهُ وهو فى السادسةِ من عمرِه ، ثم ماتَ جدُّه عبدُ المطلبِ ومحمدٌ فى الثامنةِ من عمره ، فكَفَلَه عمُّه أبُو طالبٍ ، إذْ كانَ أبو طالبٍ أخاً شقيقاً لعبدِ الله والدِ محمد ، ولذلكَ كانَ أرْحَمَ أعمامِ النبيِّ به،وأولاهم برِعايَتِهِ ، وقد تَرَبَّى محمدٌ فى بيتِ عمِّه ، ولما شبَّ ساعَدَه فى أعمالِه التجارية وسافرَ إلى الشامِ مُتاجراً قبلَ أن يبلغَ سنَّ الرشدِ .

وعندمَا كانَ عُمْرُ محمدٍ أربعَ عشرةَ سنةً وقعتْ حربَ الفِجَارِ الرَّابعةِ ، وكانتْ بينَ قريشٍ وكنانةَ من جهةٍ ، وهوازنَ من جهةٍ أُخرى ، وقد حَضَرَ الرسولُ هذه الحربَ ، ويُرْوَى عنه قوله : كنتُ أَنْبِلُ على أَعْمَامِى يومَ الفجارِ وأنا ابنُ أربعَ عشرةَ سنةً ، (أى أُناوِلُهم النَّبْلَ) . وسُمِّيتْ حربَ « الفِجَار » لوُقُوعِها فى الأشْهُرِ الحُرُم ، وحروبُ الفِجارِ

التي وقعتْ في الأشهرِ الحُرُمِ قبلَ الاسلامِ خمسةٌ اشتركت فيها القبائلُ التي وَرَدَ ذكرُها : قريشَ وكنانةٌ وهوازنُ .

التقاء محمد وخديجة وزواجهما :

ومِنْ أهمِّ الأعمالِ التي قامَ بها محمدٌ قبلَ البعثةِ تجارتُه في مالِ خديجةَ بنتِ خُوَيْلِد ، وقد سافرَ في هذه التجارةِ إلى الشامِ وكان معه غُلامُها ميسرةُ ، وقد رَبِحَتْ هذه التجارةُ ربحاً عظيماً ، وكانتْ سببَ ارتباطٍ بين محمدٍ وخديجةَ ، وقد تمَّ هذا الارتباطُ بزواجِه منها وهو في الخامسةِ والعشرينَ وهي امرأةٌ في حوالَيْ الأربعينَ من عُمْرِها ، على أشهرِ الأقوالِ ، وكانتْ قد تَزَوَّجَتْ قبلَه مرَّتَيْنِ .

ويذكرُ ابنُ هشام أنَّ خديجةَ كانت امرأةً شريفةً نبيلةً ، وكانتْ من أوْسَطِ نساءِ قريشٍ نسباً وأعظمِهنَّ شَرَفاً ، وأكثرِهن مالاً ، فلمَّا أخْبَرَها ميسرةُ بما لاحَظَهُ على محمدٍ خلالَ رِحلةِ التجارةِ ، قرَّرَتْ خديجةُ أن تَخْطُبَ محمداً لنفسِها بطريقٍ غيرِ مُبَاشِر ، فأَرْسَلَتْ إليه امرأةً ذَكِيَّةً اسمُها « نُفَيْسَةُ بنتُ مُنْيِهِ » ودارَ بينَ هذه المرأةِ وبينَ محمدٍ الحِوارُ التالي :

نُفَيسة : لماذَا يا محمدُ لا تُقْدِم على الزَّواجِ ؟

محمد : تكاليفُ الزَّواجِ يا أُمَّاه لم تُيَسَّرْ لى بَعْدُ .

نُفَيسة : وماذَا يا محمدُ لو كَفَيْناكَ هذه التكاليفَ ، واقترحتُ عليكَ امرأةً من أعظمِ سيداتِ قريشٍ حسباً ومالاً ؟

محمد : ومَنْ تكونُ هذه السيدةُ ؟

نُفَيسة : خديجةُ بنتُ خويلد .

محمد : إنَّنى أعرفُ أن كثيرِينَ تَقَدَّموا اليها ورَفَضَتْ الزواجَ .

نُفَيسة : إذا قَبِلْتَ أنتَ يا محمدُ كانَ علَىَّ أنْ أُكْمِلَ الموضوعَ .

وتَمَّ الاتفاقُ على أَنْ يَتِمَّ زواجٌ ، وخَطَبَ أبو طالبٍ خديجةَ لابنِ أخيهِ ، وقدَّمَ لها عشرينَ ناقةً لتكونَ مهراً لها ، وألْقَى فى أهلِ خديجةَ عِنْدَ الخِطبةِ كلمةً قالَ فيها : إنَّ محمداً ابنَ أخِى شابٌّ لا يُوزَن به فتىً من قريشٍ إلَّا زادَ عليه شَرَفاً وخُلُقاً . وإنْ كانَ قليلَ المالِ فالمالُ ظلٌّ زائلٌ ، وله فى خديجةَ بنْتِ خويلد رغبةٌ ولها فيه مثلُ ذلكَ ، وقد ساقَ محمدٌ إليها عشرينَ

ناقةً مَهْراً .... فقام عَمُّ خديجةَ وردَّ على الخطبةِ بِقَبُولِها ، وبارَكَ الزَّوجَيْن .... وأقيمَ حفلُ الزواجِ فنُحِرَتْ الذبائحُ وأُطْعِمَ الناسُ وفَتَحَتْ دارُ خديجةَ أبوابَها لتُولِمَ الوَلائِمَ ، وتَسْتَقْبِلَ رُؤُوسَ العشائرِ مهنِّئِينَ . وضَمَّ بيتُها الكريمُ أعظمَ زَوْجَيْنِ .

فطنة محمد :

ولما بَلَغَ محمدٌ الخامسةَ والثَّلاثينَ جدَّدت قريشٌ بِنَاءَ الكعبةِ ، وقد كانَ الرسولُ يعمَلُ مع قريشٍ فى نَقْلِ الحجارةِ والبِناءِ ، ولما تَمَّ العَمَلُ ، وأَرَادتْ قريشٌ إعادةَ الحجرِ الأسودِ إلى مكانِهِ اخْتَلَفَتْ القبائلُ فِيمَنْ يَكُونُ له شَرَفُ حَمْلِه ووضْعِه ، وكادَتْ تقومُ الحربُ بينَهم ، ثم اتَّفَقُوا على أَنْ يُحَكِّموا أَولَ داخلٍ عليهم مِنْ باب شَيْبَةَ (أحدِ أبوابِ الحَرَمِ) فكانَ محمدٌ أولَ داخلٍ ، فقالُوا : هذا هو الأَمِينُ ، رَضِينَاه حَكَماً . وأخبَرُوه الخَبَرَ : فَبسَطَ رداءَه وَوَضَعَ الحجرَ عليه ، وقالَ : لتَأْخُذْ كلُّ قبيلةٍ بطرفٍ من الثَّوْبِ ، فَرَفَعُوه حتَّى انْتَهَوْا إلى مَوْضِعِه ، فَأَخَذَهُ محمدٌ ووَضَعَه مكانَه ، وكانَ فى عمله هذا حكيماً أرْضَى الجميعَ .

أَخلاقُ محمدٍ قبلَ البعثة :

اتَّفق المؤرِّخون والباحثونَ على أَنَّ محمداً لم يَعْبُدْ صنماً قَطُّ ، وبُغِّضَتْ إليه الأَوْثانُ ودينُ قومِه ، وإنما كانَ يَخْلُو لنفسِهِ ويفكِّرُ فى الكَوْن وصانِعِه ، وكانَ يُجَاوِرُ فى غار حِرَاءَ شهراً من كلِّ سنةٍ . واستمرَّ كذلك حتى عَبَدَ اللهَ على دينِ إبراهيمَ الخليلِ الذى كان يَدينُ به بعضُ العربِ الذين لم يَقْبَلُوا عبادةَ الأَوثانِ ، مثل قُسِّ بن سَاعِدَة وأَكْثَم بن صَيْفِيٍّ وأُميةَ بنِ أبى الصَّلْتِ . وكما تَنَزَّهَ محمدٌ عن عبادةِ الأصنامِ فإنه تَنَزَّه كذلك عن مَذْمُوماتِ الجاهِلِيَّةِ التى كان يَغْرَقُ فيها شبابُ العربِ فى ذلك العَهْدِ .

ولم يَكْتَف محمدٌ قبلَ الإسلامِ بالبعدِ عن الأصنامِ وعَدَم التمسُّحِ بها ، بلْ كان يَنْهَى عن ذلك أيضا ، يُرْوَى أَنَّه كان مرةً يطوفُ بالكعبة قبلَ البعثةِ ، وكان معه زَيْدُ بنُ حارثَةَ ، فَمَسَحَ زيدٌ الأَصنامَ بيده ، فصاحَ به محمد : لا تَمَسَّ هذه الأَصنامَ يا زيد ، وتحيَّر زيدٌ من ذلك ، وقرَّرَ أن يَمْسَحَ الأصنامَ مرةً أُخرى ليتأكَّدَ له رأىُ محمدٍ ، ولما مَسَحَ زيدٌ الأصنامَ مرةً أُخرى غَضِبَ محمدٌ منه وصاحَ به : كنتُ

نهيتُك عن مسِّ هذه الأصنام ، ألَا تفهمُ يا زيْد ؟ وتأكَّدَ زيدٌ من اتِّجاهِ محمدٍ ولم يَلْمِسْ الأصنامَ بعدَ ذلك .

بعثة الرسول

هيَّأ مالُ خديجةَ للرسولِ فرصةً للتفرُّغِ للعبادَةِ،فقد تَرَكَتْ له خديجةُ حُرِّيَّةَ استِغْلالِ مالِها والإنْفَاقِ منه كما يشاءُ . فلَمْ يَعُدْ فى حاجةٍ للصِّراعِ المستمرِّ من أجلِ لُقْمَةِ العَيْشِ ، قال تعالى : « أَلَمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوَى ، ووجدكَ ضَالاً فهدَى ، وَوَجَدك عائِلاً فأَغْنَى » (سورة الضحى) . وكانَ محمدٌ كما قلنا يَخْلُو لنفسِه يفكِّرُ فى الكَوْنِ ، ومَنَحه الغِنَى فرصةً للفَرَاغِ والمزيدِ من التَّفكِير ، وَمَنَحَهُ تقدُّمُ سنِّهِ مزيداً من الصَّفاءِ ، وشمَلْته عنايَةُ اللهِ فَرَأى أَنْ يَخْلُوَ لله ، وشجَّعَتْه زوجتُه الصَّالِحة على رَغْبَتِه ، فكانَتْ تُعِدُّ له الطعامَ فيأخذُه ويذهبُ إلى غارِ حِراء ، حَيْثُ يَخْلو ليفكِّرَ فى الكونِ وخالِقِه،والموتِ ومصيرِ الناسِ بَعْدَه وهكذا .... وَصَفَتْ نفسُ الرسولِ فأَصْبَحَت رُؤاه تَتَحقَّقُ ولا تَكَادُ تَتخَلَّفُ .

وفى غارِ حِراء بدأتْ البعثةُ كما سنرى فى الجزء التالى إن شاء الله .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٤٤٧/ ٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7303 - 7



♦ ♦ ♦ ♦

بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

سعر رمزى خمسون قرشا